الحضارة الحثية

أقدم آثار آسيا الصغرى وسوريا الشمالية

بقلم فيصر سليم
عضو جمعية العاديات السورية

اشتمل الجانب الاول من هذا المقال التاريخي النفيس على بحث في البعوث الحفرية التي نقبت عن آثار الحضارة الحثية في آسيا الصغرى وشمال سوريا من ايام لاروك الفرنسي سنة ١٧٢٢ الى الآن ثم تلت ذلك كلمة في أصل الحثيين وحواضرهم الاربع في آسيا الصغرى وهي كوثر وناز وزليا وحاتوشا (راجع مقتطف ديسمبر ١٩٣٦ صفحة ٥٥٤ — ٥٥٩) وفي ما يلي نظرة في فتوحاتهم وفي عاصمتهم كركيش المشهورة : المحرّر

عكف خلفاء الملك عيا على اتباع سياسة التوسع في بلاد الغربيين الذين دنّست الآثار على رسوخ قدمهم في آسيا الصغرى منذ ٢٥٠٠ سنة ق. م. فاجتاحها الحثيون القدماء في القرن التاسع عشر ق. م. ونخص منهم بالذكر الملك تورهاليا خليفة عيتا الأول وأرلاده بازايا وياقا حتما وقد تبيّن من حل رموز بعض الكتابات الحثية انهُ كان هنالك مملكة حصينة اسمها توريشا حدا دوخها ملك حثي يدعى تلابارنا وأخذ فتن الشعوب التي استعبدها فيها فصار اسمهُ بمثابة لقب يطلق على جميع الملوك الحثيين الذين تعاقبوا على العرش من بعده كلقب الاغسطس والقيصر الذين عند الرومان فتوسعت تخوم المملكة الحثية كثيراً على عهد هذا العاهل البطل ثم حذا حذوه كل من الملكين حاتوشيل الأول وموورسيل الاول فافتتحا سوريا الشمالية وتوغلا فيها وقد كانت حلب في ذلك العهد البعيد عاصمة مملكة مستقلة حصينة فرماها حاتوشيل الاول رماية واسعة وأغدق عليها الشم بالنظر الى مركزها الجغرافي ومطامع الاستعمارية في البلاد المجاورة فزدت في أيامه وازدادت ازدهاراً ولكن خليفته موورسيل الاول ما لبث ان ندم على خطة

نعاش هذه المملكة التي قويت شوكتها وأخذت تطمع في توسيع حدودها مناصبة جيرانها الحثيين العداء فزحف عليها بجيوشه الجرارة ودمرها تدميراً بعد أن أسر مليكها وبعثهُ سجيناً الى عاصمته حاتوشا ثم واصل زحفه حتى بابل في القرن الثامن عشر ق.م . وكان ملكها يدعى سامصوديتانا من ملوك السلالة البابلية الأولى التي تحدّر منها حمورابي الشهير فاكتسح الملك الحثي مدينة النور في تلك العصور وسلب مقامها وعكف عنها راجعاً الى عاصمته بكنوز لا تحصى فازدادت حاتوشا منذ ذلك العهد غناء وعمراناً وأصبحت قاعدة الحثيين الكبرى حتى اضمحلال أثرهم من آسيا الصغرى . وقد عثر في مكتبتها العامرة على لائحة تضم أسماء أحد عشر ملكاً خلفوا الملوك التقدمي الذكر بيد انهُ لم يتسنَّ لنا بعد ان نقف على أعمالهم الاَّ واحداً يدعى تلابينو عاش في القرن السابع عشر ق م . فقد اضطرَّ هذا الملك على ما تخبرنا المخطوطات القديمة ان يقضي معظم عهد ملكه جادًّا وراء أقوام همجية انتشروا في شمالي مملكته انتشاراً مخيفاً فأبلى في محاربتهم بلاءً حسناً وقمع فتناً عديدة كانت تثيرها الشعوب المستعبدة طلباً لتحريرها من قيود الاستعمار الحثي . والخلاصة ان عهده كان عهد شؤم وشدَّة وهو يعزو ذلك في اعتراف لهُ الى المأساة التي أحاطت بظروف تسنمه العرش اذ لم يتوصل اليهِ الاَّ بعد ان أباد جميع منافسيهِ ومحى أثرهم ثم ندم على فعلته وختى عقابها فقاضى عن سائر خصومهِ الذين بقوا في قيد الحياة تكفيراً عن سيئاتهِ ونظم مجلساً عالياً للتأمين على خلافة الملك من بعده وفاقاً لقواعد الوراثة الشرعية . وهنا تنقطع عنا اخبار الحثيين زمناً يقرب من ثلاثة احقاب فاصلة بين سنة ١٦٨٠ وسنة ١٤٥٠ ق.م اذ لم يعثر على أثر يدلنا على حوادثهم في هذا العهد الخالي بين كل المكتشفات المتواصلة الى يومنا فعسى ان تأتينا الحفريات القادمة بما يسد هذا الفراغ . على انهُ يلوح من قرائن الحال حدوث كسوف للسلطة الحثية خلال هذه الفترة وانحسار في صفوفها مما سمح للبابليين ان يبلغوا اضعاف العاصي وللمصريين ان يغزوا بلاد كنعان من غير ان يصدوا بمقاومة جديرة بالذكر

بيد انهُ ما عتمت تلك الدولة العظيمة ان استعادت صولتها على عهد تودهاليا الثاني الذي دشن عصور النهضة بفتوحاته الموفقة في أواخر القرن الخامس عشر ق.م. وكان لهُ في تاريخ المملكة الحثية شأن خطير . ومما ذكر لهُ انهُ استعاد في سنة ١٤٢٠ ق.م مملكة حلبا اي حلب الى حيازة الحثيين بعد ان خرجت عليهم زمناً طويلاً . ثم عقبهُ في الملك حاتوشيل الثاني الذي أحرز انتصارات باهرة في سائر مدن سوريا الشمالية

اما خليفته تودهاليا الثالث فقد مني بانكسارات شديدة حملت ابنه على قتله لانتقال المملكة من وهدة الخراب التي اشرفت عليها فصعد على العرش من بعده الدرغام سويلوليوما (١٣٤٧ ـ ١٣٨٧) ق.م وهو اكبر ملك في سلالة الملوك الحثيين وأعزهم شأناً . وقد وقفنا على معظم الحوادث

الخطيرة التي جرت على عهده بفضل المعاهدات التي عقدها مع الدول المجاورة ودوّنها على الواح خالدة والحروب التي نقش موقع انتصاراته فيها على الانصاب الحجرية ، تلك التي عثر عليها البعثة الاثري كافيناك واستدل منها على ان هذا الملك توغل في سورية حتى بلغ اقصى حدودها منتهزاً وقوع الشقاق في صفوف محاربيه ثم استولى على مدينة عيسوى القائمة على ضفة الدجلة الشمالية شرقي بلاطية وتحالف مع مليك عشتة الواقعة في شمالي عيسوى وطوق ممالك الحوريين والميتانيين ودانت له بلاد كثيرة نخص منها بالذكر كركيش ثم زحف على بلاد كنعان واجتاح بطريقه قطنا فدمرها وحارب جيوش مدينة قادش واشتد هوذه حتى اوغاريت المعروفة برأس الشمراء قرب اللاذقية التي كانت مستعمرة مصرية في ذلك العهد

بين المصريين والحثيين

وقد جاءت رسائل تل العمارنة شاهدة صراحة على ما بلغ اليه هذا الملك العظيم زعلاوةً على ما تقدم ابانت تحريره مقاطعة غربي الفرات من حكم الدولة الميتانية بحنكتهِ ودهاء دون ان يلجأ الى سفك الدماء . وبينما كان يعد عدته للقيام بغارة على مستعمرات مصر في سواحل سورية طرأت اضطرابات خطيرة في آسيا الصغرى بين سنة ١٣٧٨ وسنة ١٣٥٨ق.م اضطرتهُ الى ان يشخص اليها ويثني عن تلك الحملة التي كان ناويها على انهُ ما لبث بعد اخماد تلك الاضطرابات ان عاد الى سورية وقمع حروباً اهلية كانت قائمة في بلاد الميتانيين وتوج على هذه المقاطعة صهره ماتيوذا ثم اقام احد ابنائه المدعو ياسيل ملكاً على كركيش وآخر ملكاً على حلب فحصّن بذلك تخوم مملكته من غارات العدو وذاع صيته في مشارق الارض فبلغ مسامع ملكة مصر ارملة الفرعون آي خليفة توتنخ آمون آخر ملوك السلالة الثامنة عشرة الذي عاجلتهُ المنية في العام الثاني من ملكه فبعثت تتوسل اليه ان يوفد اليها احد أبنائه لتجعله فرعوناً لها وخاطبتهُ بهذا التعبير « مات زوجي ولم يخلف وارثاً للعرش وقد قيل لي ان اولادكم كثيرون فما ضركم لو بعثتم لي واحداً منهم لاقترن به وآمن من حشية الاضطرار الى الزواج من احد عبيدي . » فلم يرتح سيبلوليوما الى طلبها واوفد احد عماله ليستوثق منها فاردفت تخاطبه برسالة ثانية قائلة : « لمَ شككتم بحسن طويتنا وظننتم انا اياكم خادعون . لو كان لي ابن لما تذللت الى الغريب . قلت لكم ان زوجي قد مات ولم يخلف وارثاً لملكه فاعطوني واحد من اولادكم الكثيرين لاجعله زوجاً لي وأبوئهُ عرش مصر . ثقوا اني لم اكتب الى احد غيركم . ألعله يحسن لديكم ان اتزوج من احد عبيدي » . فاختار عندئذٍ سيبلوليوما احد ابنائه واوفده اليها ليكون ملكاً على مصر ولكنهُ قبل ان يتسنم ذلك الشبل الحثي عرش الفراعنة حيكت حوله دسيسة اغتيل فيها يد اثيمة ونادى

حوراحيب بنفسه ملكاً على وادي النيل فصدق عندئذ سوء ظن ملك الحثيين وكتب رسالة وصلت منورة لا يدينا يشكو فيها من احتيال ابنه مر الشكوى ويتوعد مصر بالانتقام وكشف ابنه ارنونتا الذي كان نائب ملكا ان يأخذ بثأر اخيه وقد تباهى الحثيون عقيب ذلك بأنهم انزلوا بالمصريين عقاباً اليماً على انهُ لم يدم ملك ارنونتا طويلاً فاعتلى العرش اخوه مورسيل الثاني سنة ١٣٤٧ ق.م وكانت الملكة ارملة سيلوليوما على قيد الحياة تحمل لقب « ام الاله » كما سنراه في سياق الحديث عن انظمة الحثيين وعقائدهم الدينية فلم تمزج مع كنتها التي ما عتمت ان ماتت مسمومة عام ١٣٤٠ ق.م . فأقصى الملك عندئذ امه عن العرش وعين لها مخلاً للاقامة وقسر لها فيه كل صنوف الرفاهية بيد انها لم تلبث ان ماتت هي ايضاً بعد كنتها بقليل فخامر الريب الظنون في ان تكون قتلت قتلاً اذ نرى حاتوشيل الثالث خليفة مورسيل الثاني يستغفر الآلهة عن هذا الاثم ويتنصل منه بزعم انهُ كان صغيراً لا يعي

ويتخلل هذه البرهة لشوب ثورات دموية في الممالك الحثية وقيام الشعوب المغلوبة على ملكها مما افقر بضاعتهم فاضاعهم فضال جبارة وقوي في النتيجة على قمع ثوراتهم وقتلهم وارجعهم الى الكنة وولّى احد اولاده على كركميش وابن عمه على حلب ثم انهمك في مطاردة البرابرة الذين غشوا شمالي غربي اسيا الصغرى فدارت بين الطرفين رحى حرب عوان ابلى فيها الجيش الحثي بلاء مجيداً وبعد وفاة هذا الملك عام ١٣٢٠ ق.م اشتبك الحثيون بحروب عنيفة مع المصريين على عهد مواتللو بن مورسيل الثاني وستي الاول فرعون مصر مما تحوّلت سمةُ سياسة الدولة الحثية تحوّلاً جديداً فاضطرت الى موالاة الدول المجاورة والتحالف معها بنية التغلب على هؤلاء الاعداء الالداء

وقد نشبت معظم المعارك بين الطرفين في قادش الواقعة جنوبي بحيرة حمص وقد كانت هذه المدينة في حيازة الحثيين بمثابة حصن يصد خطى الغزو المصري عن التقدم شمالاً غير ان مواتللو انحدر عندها في سنة ١٣٠٨ ق.م كما تشير الى ذلك مسلة اقامها فرعون مصر قرب البحيرة تذكاراً لانتصاره عليه واكتشفها مسيو پيزار في اثناء حفرياته سنة ١٩٢١ في ذلك الموقع المسمى اليوم تل نبي مند. فتريثا نقوش هذه المسلة الفرعون سيتي ينقبل عكاز النصر من الآراميين وقد وقف خلفه الاله سوتخ الآسيوي وآلهة قادش الموالية لمصر . على ان قادش لم تلبث طويلاً في أيدي المصريين بل عادت الى الحثيين على الرغم من انهما كم في تلك الآونة بالقضاء على الفوضى التي عمّت في سائر مستعمراتهم والخسائر التي منوا بها في شمال مملكتهم

ومما تخبرنا به الكتابات الهيروغليفية ونقوش مصر الخالدة ان رعمسيس الثاني الذي ملك من سنة ١٢٩٨ حتى سنة ١٢٣٢ ق.م خرج في اوائل عهده يتفقد ممتلكاته في سوريا فلما وصل الى

نهر الكلب عند مدخل بيروت التي كانت منتهى حدود البلاد الخاضعة لسلطته نقش ذكرى مروره على صخرة بارزة في الجبل ونظر الى الشمال فاتت نفسه الى الاستيلاء على سائر السواحل العامرة كجبيل وأوغاريت (رأس الشمراء) وغيرها مما كان تحت سطوة النفوذ الحثي فادرك مواتلو ما وراءه الاستعمارية واستثار حمية مختلف الشعوب القاطنة في الانحاء السورية بما فيها البرابرة والسائر الرحل الذين كان دأبهم الغزو والسلب وحشد منهم جيشاً لجباً ضمّ اليه ٣٥٠٠ عربة حربية وكمن لخصمه بالمرصاد وراء حصون قادش فتقدم رعمسيس الى الشمال فاتحاً في طليعة جيوشه السود في ربيع سنة ١٢٩٤ ق.م وبلغ ابواب قادش وبينما كان يتجفّز لاقتحام هذه المدينة خرج عليه الجيش الحثي وبغتهُ مباغتة لانهُ لم يكن يحسب ان يتلقاه الاّ عند ابواب حلب فالتحم الفريقان بحرب سجال ابديت فيها مقدمة الجيش المصري عن بكرة ابيها وكادت تقضي على البقية الباقية لو لم يتصرف هُ البرابرة الى نهب الغنائم التي تركها المصريون وراءهم فانتهز رعمسيس هذه الفرصة الثمينة وجمع فلول جيشه ثم استنجد بالفينيقيين المقيمين في السواحل الموالية له واعاد الكرة على عدوه فانقض عليه كالصاعقة واحرز النصر ببسالة منقطعة النظير فسقطت اشلاء الحثيين بالالوف صرعى في السهول والذين ونوا الادبار غرقوا في مياه العاصي فخلد رعمسيس هذه الموقعة الكبرى بنقشها على جدران الكرنك واعمدة الاقصر حيث يشاهد حصن قادش في جزيرة تحيط بها مياه العاصي وحامية الحثيين على اسواره ويرى بغتةً فرق من الحرس خارجةً من الحصن تهاجم العدو وبسرةً رجال يعنون بانقاذ امير غريق هو مليك حلب ونقش في أسفل تلك المشاهد مواكب فرسان الحثيين واقفين بغتةً ومواكب فرسان المصريين يسرة كأنهم متأهبون للقتال. ومع اندحار الحثيين ثانيةً بقيت قادش في حيازتهم

وبينما كان مواتلو يستجمع قواه لخوض غمار حرب جديدة وافاه اجله سنة ١٢٩٢ ق.م فخلفهُ اورحي تحشوب الذي ملك من سنة ١٢٩٢ الى سنة ١٢٨٥ ق.م ثم حاتوشيل الثالث. وقد بدأ عاهل الاشوريين سلمنصر الاول (١٢٦٠ — ١٢٨٠) يعلل نفسه على عهد هذا الملك بالبلاد الحثية العامرة بعد ان قويت شوكته وامتد نفوذه الى حدود الدول المجاورة فخشي الحثيون بأسه واتقوا شر الوقوع تحت رحى حرب طاحنة فراحوا يوطدون دعائم السلم مابينهم وبين مصر ليتفرغوا لمناجزة عدوهم الجديد فتفاوضوا رعمسيس بالصلح مفاوضة الند للند وعقدوا معهُ في سنة (١٢٧٨) ق.م معاهدة تحالف اثبتوت فيها شروط الفريقين على قاعدة واحدة وصار فرعون مصر يلقب عدوه الحثي بالامس باحسن الالقاب مثل « يا أخا الشمس » وقد عثر على نسختي هذه المعاهدة المتبادلة بين الملكين الكبيرين فوجدت احداهما محفورةً بالخط الحثي على لوح من الفضة ومحبورة بطابع الملك حاتوشيل الثالث والاخرى مكتوبة على الآجر باللغة

المصرية مقرونة بترجمتها الى البابلية بتوقيع فرعون مصر وتلخص بنودها الطويلة في ان الفريقين يتبادلان في سنة ٢١ من ملك رعمسيس الاقرار بعهد السلام بينهما ويتواعدان بمواصلة العلائق الطيبة بين القطرين وبتعيين الحدود بينهما وعدم التنازع عليها وبتأييد منطوق المعاهدات التجارية بين الاسلاف ثم يلتزم كل منهما بضرورة التعاون المشترك لصد غارات العدو المداهمة وتأديب العصاة وطرد المتحيزين من السيد الهاربين وبوجوب المحافظة المتبادلة على نظام الخلافة في الملك ويختمان في ختامها لغة الف الله مصري والف آخر حثي على كل من يجسر ان يعبث بها ويستطرد ان القبطة والبركة على من يتقيد بنصوصها وقد وجد في النسخة الفضية على كل من صفحتيها صورة الملك والملكة تحميها الآلهة الحثية [1]. ومما يمكن اواصر الصداقة بين الطرفين زواج رعمسيس الثاني من ابنة حاتوشيل الكبر سنة ١٢٦٦ ق.م ودعوته حماه الى زيارة مصر واهدائه تحفاً ثمينة بمقابل ما حملته له عروسه منها وبلوح من رسائل الثناء والشكر التي كانت تبعث بها هذه العروس الى اختها التي كانت ملكة احدى المقاطعات الحثية انها قضت حياة سعيدة بجوار زوجها المصري وقد قال العالم الاثري الاستاذ موره ان مصر اكبرت قصة هذا الغرام وأشادت بذكره ونقشت صور حفلاته على جدران معبد ابي سنبل لاتقائها بذلك غائلة حرب ضروس

العاصمة كركميش

اذا أخذنا بما اكتشف في اعماق اطلال كركميش من الماعون المنحوت من الصوان يرتقي بنا عهد هذه المدينة الى الأزمنة التي قبل التاريخ فيظهر ان شعباً لا يزال مجهولاً احتلها في ذلك العصر الصواني العريق في القدم ثم تناقلت الى ايدي شعوب عديدة حتى انتهت الى الحثيين في القرن الخامس عشر ق.م كما ألمعنا الى ذلك في سياق الحديث عن فتوحاتهم. وقد أخذت هذه المدينة منذ الاحتلال الحثي تتقدم سريعاً في معارج الحضارة بالنظر الى موقعها على ملتقى طرق القوافل التجارية حتى تفوقت على سائر الحواضر الحثية رقياً وعمراناً وأصبحت مع توالي الايام تعد من اكبر العواصم الحثية ومن أهم مراكزهم الحربية في مناجزة الآشوريين لانها كانت على ضفة الفرات بمثابة مفتاح سوريا من جهة المشرق ولذلك بالغ الحثيون في مناعة تحصينها وسموها كركيش بمعنى حصن الاله كيش

وما كاد يسطع نجم هذه العاصمة الجديدة حتى اخذت مملكة حاتوشا القديمة تنحط انحطاطاً عاجلاً الى ان ادركها الفناء في القرن الثاني عشر ق. م كما يؤخذ من بعض الاسانيد الاشورية وتعزى علة اضمحلالها الى التأر الرفيع الذي بلغته من الرقي والعمران في ايام مجدها مما جعلها مطمح انظار ملوك اشور الاقوياء وقبلة مطامعهم فناصبوها العداء زمناً مديداً وحملوا عليها حملات

(١) راجع مقتطف اكتوبر ١٩٣٦ صفحة ٣٢٨ مقال الدكتور حسن كمال في تفصيلات هذه المعاهدة

شعواء لم تقو على مقاومتها طويلاً بسبب خيانة حاميتها التي كان معظمها من عناصر متنافرة تضمر لسادتها البغضاء فلما انتهزت فرصة ضعفهم تكتلت بهم وولت الادبار فتفككت عندئذٍ روابط وحدة المملكة وتنازعتها عوامل الشقاق فتخاذلت قواها واستسلمت للغزاة الذين سلبوا كنوز قصورها وقوّضوا اركان معابدها وطمسوا معالمها تحت اطلال الردم

فلما مني الحثيون بهذه الخسائر الفادحة آنست الشعوب الرازحة تحت نير عبوديتهم ضعفاً في كيانهم فثارت عليهم ثورتها الكبرى محررة نفسها من نير استعمارهم فتمزق بذلك شمل المملكة الحثية في آسيا الصغرى وسرعان ما طغى عليها الاشوريون وساموا من بقي فيها من الحثيين صنوف الذل والعذاب فاضطر هؤلاء أن يهاجروا الى الجنوب ويتحصنوا في مملكتهم الجديدة فازدادت كركيش على اثر هذه الهجرة ازدهاراً

ولعل ذلك كان آخر لمعة لحضارتها الحثية المشرفة على الانطفاء اذ لحق الاشوريون باولئك المهاجرين وتغلغلوا تدريجاً في احشاء المملكة الجديدة تقصد الاستيلاء عليها بالسياسة والدهاء بعد ان تغلبوا على معظم انحاء البلاد المنتشرة في سائر الانحاء السورية ودليلنا على ذلك ان مصر قد استعرضت في سنة ١١١٠ ق.م الملك الاشوري تغلا تغلا صار الاول سيداً على سوريا وفلسطين وما بين النهرين على ان كركيش ظلت ثابتة القدم في المقاومة شامخة الرأس في الحصار عدة أجيال حتى اذا اشور ناصربال الثاني في سنة ٨٧٩ ق.م على عهد مليكها سنغارا فسقطت عندئذٍ الدولة الحثية من اعالي المجد الى هاوية الفناء ولم يبقَ من جيوشها الجرارة غير قلول تبعثرت بعد محاولات فاشلة وباد ذكرها من تاريخ الامم

وقد حفظت لنا اطلال كركيش في طياتها اثراً نفيساً من البرونز . يرينا سنغار آخر ملك حثي يقدم لنا ملك اشور الفاهر ابنهُ مع مغانم بلاده وهو منكوس الرأس خضوعاً وخجلاً

فيستنتج مما تقدم ان اولئك الحثيين المتحدرين من العرق الآري قد شغلوا دوراً خطيراً في حضارات الشرق وكانوا على غاية من القوة وحب الاستقلال فهاموا بالحروب ودوخوا شعوب آسيا الصغرى وسوريا الشمالية وشادوا في ديارها مملكة عظيمة ثم قاوموا اقوى دول الارض على عهدهم وحملوها على خطب ودهم ومفاوضتهم بالسلم مفاوضة الند للند

وعند ما دالت دولتهم في الشمال جنحوا الى التحصن في جنوبي مملكتهم وتاجروا اعدائهم الاقوياء اجيالاً طويلة من غير ان يتطرق اليأس الى قلوبهم فذادوا عن كيانهم حتى الرمق الاخير ثم لما انهارت صروح مملكتهم تركوا وراءهم آثاراً خالدة منها كركيش ذات القلاع المنيعة والابراج الضخمة التي ظلت بعد اندثارهم بقرون شاهداً صراحاً على ما بلغتهُ بفضلهم من الرقي والعمران